

نبي الله صالح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١] ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أى تلقوا أو امركم ونواهيكم من الله سبحانه وتعالى فى كل حركة من حركات الحياة. قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أى أن الله تعالى لم يرسل رسولا غريبا عليهم، بل هو أخوهم الذى يعرفونه ويعيشون معه. يعرفون حسن سلوكه وسيرته الطيبة وعقله الراجح، وهذا حتى لا يكون للناس حجة على الله تعالى؛ لأنه لو جاءهم برجل غريب ربما قالوا: هذا رجل لا نعرفه، ولا نعرف صدقه أو كذبه أو سلوكه، ربما كان كذابا أو لا أخلاق له، جاءنا يكذب علينا لتكون له السلطة الدنيوية.

الحق سبحانه وتعالى يبطل هذه الحجة تماما، بأن يأتيهم برسول منهم عاشوا معه ولم يعرفوا عنه كذبا. بل عرفوا عنه الأمانة والصدق والإخلاص، لا يريد نفوذا دنيويا، ولم يسع إليه. فى هذه الحالة لا عذر لهم إذا كذبوه؛ لأنهم يعرفون كل شئ عنه، وكل ما يعرفونه عنه يعطيهم الثقة الكاملة فيه. ماذا قال صالح؟ ﴿قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ القوم يطلق عادة على الرجال ولكنه يشمل المرأة أيضا كما ذكرنا سابقا.

وقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون واسطة، أنشأ أى أوجد وجود ابتداء دون الاستعانة بأحد. الذى ي اخترع آلة لا نقول أنشأها؛ لأنه استعان بأشياء كثيرة كى ي اخترعها، استعان بالمادة، واستعان بما وصل إليه الذين من قبله من علم، واستعان بنتائج عقول الآخرين، ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لماذا؟ لأنه وحده سبحانه وتعالى الذى يخلق بغير موجود وبغير مثال سابق، ودون الاستعانة بأحد، فهو وحده الموجد من عدم. والمنشئ من عدم.

وقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ الخطاب هنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا خلق الإنسان من الأرض؛ لأن آدم هو الذى خلق من الأرض، ونحن ذريته.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رَأْسُكُمْ فِيهَا﴾ استعمركم.. ساعة أن ترى

الألف والسين والتاء. اعرف أنها للطلب، فاستخرج: يعنى طلب الإخراج، واستفهم يعنى طلب الفهم، واستعمر يعنى طلب التعمير.

وقوله: ﴿وَأَسْتَعْمِرُ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها. والتعمير ضد التخريب. وعمارة الأرض تقتضى:

أولاً: أن يبقى الصالح على صلاحه، أو نزيده صلاحاً. ولقد كان الناس فى الماضى يشربون من الآبار، ولكن الآن صار الماء فى كل بيت.

الثانى: أن ننميتها بما يناسب التكاثر الذى يوجد؛ لأن مايتكاثر بالاستقبال يقل بالمضى.

وقوله: ﴿فَأَسْتَغْفِرُهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١] الاستغفار: طلب المغفرة من الذنوب التى وقعت، والتوبة: ألا تعود إلى هذه المعصية أبداً. ولكنك تجد إنسانا يقول: أنا ذاهب للحج. والحج غفران للذنوب، أفلا أرتكب ذنبين أو ثلاثة ثم أحج فيغفر الله لى، نقول هل أنت تضمن أن تعيش حتى تحج؟ لا تضمن، فحافظ على نفسك فإن الأجل ربما يأتى فجأة.

وقوله: ﴿إِنِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] فمادمت استغفرت فقد سمعك لأنه قريب. ومادمت قد تبت فقد قبل توبتك لأنه مجيب.

الحق سبحانه وتعالى يقول وهو يروى لنا حوار الكفار مع صالح: ﴿يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَلِيلًا﴾ [هود: ٦٢] ﴿كُنْتَ﴾ أى فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرسالة. مرجوًّا من قبل، يعنى نأمل على يدك الخير. فما الذى جعلك تقول: اعبدوا الله وحده. قد كنت تعين الضعيف وتعطى الفقير، وتملك كل خصال الخير قبل أن تنادى بأنه لا إله إلا الله ولا عبودية إلا لله وحده.

ويمضون فى مجادلتهم: ﴿أَتَنْهَوْنَنَا أَنْ نَعْبُدَ آبَاءَنَا﴾ [هود: ٦٢] أى أنقول لنا إن عبادة آبائنا للأصنام أو الشمس أو غيرها كانت خاطئة، وتطلب منا أن نتركها؟ ولو كان هؤلاء الناس يعقلون، لسألوا أنفسهم: هل الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشئ أو تنهاهم عن شئ؟ طبعاً لا. إذن فلا منهج لها. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَشْكُرُ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ شُكْرًا﴾ [هود: ٦٢] والشك هو استواء الطرفين: الإثبات والنفى. إذن فهم ليسوا على يقين من آلهتهم والذى منعهم أن يكذبوا صالِحًا تكذيبًا قاطعًا، أنهم قالوا: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَلِيلًا﴾ [هود: ٦٢].

كذبت ثمود المرسلين

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٤٤﴾﴾ [الشعراء] هم كذبوا رسولهم صالح عليه السلام، ولكن الله وصفهم بتكذيب جميع الرسل؛ لأن الرسل جميعاً إنما يصدر عن شيء واحد، هو سلامة العقيدة أولاً. وهذه لا يختلف فيها رسول عن رسول، ولكن الاختلاف بين الرسل يكون في المسائل البيئية والاجتماعية التي تناسب العصر والبيئات المختلفة، لكن أصل المنهج واحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال أيضاً: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إذن.. هناك قدر مشترك في كل الرسالات، هذا القدر المشترك: هو إيمان بالله له كل صفات الكمال المطلق، وأن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً.. إلخ. هذه الأساسيات يتفق فيها كل الرسل. فإذا كذب قوم رسولهم فكأنهم كذبوا جميع الرسل. فثمود كذبوا المرسلين بتكذيبهم لنبيهم صالح عليه السلام، الذي دعاهم إلى تقوى الله تعالى فرفضوا ما جاءهم به من عند الله. مع أنه لم يطلب منهم أجراً على هدايتهم إلى منهج الحق، وقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥] يدل على أن هذا العمل في عرف العقلاء يستحق الأجر عليه؛ لأنه يعمل لهم عملاً يمد حياتهم بالسعادة إلى الآخرة.

ثم يقول تعالى: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَلَكْنَا إِمِينًا ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيُْونِ ﴿١٤٧﴾﴾ [الشعراء] الجنات معناها البساتين التي إذا دخلها الإنسان سترته لخصوصية أرضها ولا ارتفاع أشجارها، والجنات تحتاج دائماً إلى الماء، والماء قال الله فيه ﴿وَعَيُْونِ﴾ تضمن بقاء الجنات واستمرار نموها، ثم يقول الحق عز وجل: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هُضَيْمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨] معلوم أن الجنات والزروع تشمل النخل وغيره، فلماذا ذكرت الآية النخل دون غيره من الزروع؟ لأن النخل شبهه رسول الله ﷺ بالمؤمن قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها»^(١) فظن الصحابة أنه شجر البوادي. فلما خرج عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وكان مع الجالسين قال له ابنه عبد الله بن عمر وكان مع أبيه: يا أبى لقد وقع في ظني أنها النخلة. لأنها مثل

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٨١١/٦٣] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما.

المؤمن كل ما فيها خير . جذعها يستعمل سواري - أعمدة - وجريدها يسقف به وسعفها يستخدم في أشغال الخوص ، وليفها يستخدم في عمل الحبال والمكانس وفائدتها الكبرى في ثمار البلح التي تطرحها .

وهناك فائدة أخرى اكتشفها العلماء الأمريكيان مؤخرًا وهي أنهم أخذوا جزءا من مؤخر جريد النخل الذي يسمى «قحفًا» ووضعوا هذا الجزء في تربة مشابهة لتربة الأرض التي ينمو فيها النخل ثم سقوها بالماء بحساب، وكانت النتيجة أنها أنبتت نخلة جديدة!! والنبي ﷺ عندما قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها» كان على حق؛ لأن شجر النخل لا يسقط ورقه أبدًا حتى لو جف . وبعد ذلك يقول تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۚ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۚ ﴾ [الشعراء: ١٥١] المسرف هو الذي يتجاوز الحد، وتجاوز الحد له مراحل . الله تعالى حرم أشياء وأحل أشياء، وعمل لها حدودًا مرسومة . فالإسراف فيما شرع الله: هو أن تتجاوز الحد في الحلال وتدخل فيه شيئًا من الحرام، أو تأتي بشيء من الحرام، وتدخل فيه شيئًا من الحلال .

قول الحق: ﴿ ٱلَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥٢] نفهم منه أن الأرض مخلوقة على جهة الصلاح في كل شيء، يأتى الإنسان بتدخله فيفسد فيها، فالله تعالى خلق الأرض على هيئة الصلاح، ومادامت كذلك، فإياك أن تتدخل في إفسادها؛ ولكن حركتك يجب إما أن تنمى الصالح إلى أصلح بطاقة الله المخلوقة لك، أو تتركها على حالها .

وبعد ذلك يقول الحق تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أى أجرى له سحرًا متواليًا عدة مرات، والذي فعل له السحر شخص آخر . إذا كان الأمر كذلك فإننا نسأل: من الذى سحره؟ هل هو منكم أم من أتباعه؟ إن كان الذى سحره منكم فإنكم تستطيعون معالجة الموقف وتفكون هذا السحر لتوقفوه على حقيقته، وإن كان الذى سحره من أتباعه، فهذا غير معقول ولا يصدقه أحد؛ لأن الأتباع فى الغالب يعينون صاحبهم ولا يفعلون ما يعوق حركته ومهمته . فإذا ن قولهم إنه من المشركين زعم باطل، معناه أنهم يوجهون للنبي اتهامًا بلا دليل لمجرد ألا يتبعوه ولا يؤمنوا به .

ثم تقول الآيات: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء: ١٥٤] هم يستنكرون أن يكون الرسول بشرًا مثلهم . . وماذا كانوا يريدون؟ . كانوا يريدون ملكا ينزل عليهم من السماء، وفى ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا مَعَ ٱلنَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ۚ ٱلَّا أَنْ

قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤] هب أن الله بعث إليهم ملكا رسولا. كيف يتعامل معهم. إن طبيعة خلق الملائكة تختلف عن طبيعة خلق بنى آدم. الملائكة مخلوقات نورانية لا يمكن رؤيتها بالعين. والإنسان مخلوق من طين يتجسد ويمكن رؤيته بالعين. ولو بعث الله رسلا من الملائكة لاستحال على بنى آدم رؤيتهم والتلقى عنهم.



ناقة صالح عليه السلام

قال صالح لقومه: **﴿يَتَقَوَّمُ أَرَاءَ يَتَمَرَّ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتَمَرٍّ مِنْ رَبِّي﴾** [هود: ٦٣] قوله: **﴿أَرَاءَ يَتَمَرَّ﴾** أى: أخبرونى. كأنه ارتضاهم حكما، فقال لهم أخبرونى إذا كنت أنا على بينة من ربى، ويقين أنه أرسلنى وأيدنى. وأنا إن خدعت الناس كلهم لا أخدع نفسى. وقوله: **﴿عَلَىٰ يَتَمَرٍّ مِنْ رَبِّي﴾** أى أن ربى أكرمنى باليقين. فماذا تطلبون منى! أن أترك يقين ربى وأستمع لكفركم؟ وقوله تعالى: **﴿وَأَنذَرْتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾** التى هى المنهج والنبوة والرسالة.

وقوله: **﴿فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنْ اللَّهِ﴾** [هود: ٦٣] عندما تجيء الآيات فى القرآن الكريم على صيغة الاستفهام ليس معناه أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يستفهم عن شىء، ولكن الله جل جلاله واثق بأنهم لن يجدوا إجابة إلا ما يريدهم أن يقولوه ويعترفوا به لكى يكونوا شهداء على أنفسهم.

وقول الله عز وجل: **﴿فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنْ اللَّهِ﴾** أى: إن أنا رضيت حكمكم، فقولوا لى من الذى يمكن أن ينجينى من الله سبحانه وتعالى إن عصيته؟ أى قولوا لى أين أذهب إن عصيت الله؟ وكيف أتجنب عذابه، وأنا راض بحكمكم، والجواب الحتمى هنا: يكون لا أحد؛ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفلت من حساب الله. أنتم تقولون إنكم تشكون فيما أبلغكم به، وأنا أقول إننى على يقين فإن أطعتم وعصيت الله، فلا أزيد إلا خسارا، أى فما تزيدوننى غير تخسير. وقوله تعالى: **﴿إِنْ عَصَيْتُمْ فَأَ تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾** ما هو التخسير؟ إن الخسارة ضد المكسب، ومعنى الخسارة أن ينقص رأس المال. ومعنى المكسب أن المال يزداد، إن أنا وافقتكم على ما تريدون، فسأخسر كل شىء، الدنيا والآخرة. أى أننى لن أزيد بطاعتكم إلا خسارة.

حينئذ وبعد أن وصل الحوار إلى هذه النقطة. كان لابد أن تأتى معجزة

ليعرف هؤلاء الكفار أن صالحًا مرسل من ربه . وأن المنهج الذى يبلغه هو منهج الله سبحانه وتعالى .

وقال صالح لقومه كما جاء فى الذكر الحكيم: ﴿وَيَقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ [هود: ٦٤] حينما يقال هذه ناقة الله . فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة ، وأن الله تعالى استجاب لرسوله . وأعطاه المعجزة التى طلبوها . إنهم قالوا: إن كنت رسولا حقًا ، فأْتِ لنا من هذه الصخرة بناقـة . وسبب طلبهم الناقـة من الصخرة ، أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا . فقالوا له : نريد أن تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة . هم اقترحوا الآية ، والله سبحانه وتعالى أجابهم ، فانفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة . والناقـة حامل على وفق ما طلبوها . لم يكن فى استطاعتهم فى هذه الحالة أن يكذبوا الآية التى حدثت أمامهم ؛ لأنها رؤية عين ورؤية يقين ، فهم لا يستطيعون التكذيب لما حدث أمامهم .

ولكنهم عقروها ظناً منهم أن هذا إبطال للمعجزة ؛ لأن الناقـة بعد أن عقروها لن تستطيع السير ، فيقولون : هذه آية باطلة .

وكان من الممكن أن تخرج شجرة من الصخرة فيكون هذا إعجازًا . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يخرج نباتًا من الصخرة ، بل أخرج حيوانًا ، ناقـة تحمل فى بطنها جنينًا ، ومادامت معجزة طلبتموها فحققتها الله لكم ، وجعلها مشهودة منكم ، فحافظوا عليها ، لا تعرضوا لها حين تشرب وحين تأكل ، اتركوها . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ﴾ [هود: ٦١] فهى ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ اتركوها ترعى فى أرض الله وتأكل من خير الله وحافظوا عليها ، ولا تمسوها بسوء ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك فسيأتىكم عذاب الله وسيكون قريبًا .

وكان صالح عليه السلام قد طلب من قومه أن يتقوا الله ، وأنذرهم عذابه وبشرهم برحمته ، وكل هذا مفهوم من السياق . ماذا قال صالح ؟ قال لهم: ﴿لَمَّا يَنْزِلُ الْوَلَكُورُ يَوْمَ مَقْلُوبٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] أى : هى تشرب يوما وإيلكم يوما ، فوافقوا على ذلك . وكانت المياه فى مداخل صالح قليلة ، فكانت ناقة الله إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن ، فتأتى إبل غير المؤمنين لتشرب فلا تجد ماء ، أما المؤمنون فقد كان لبن الناقـة يكفيهم جميعًا ويزيد بحيث لا يحتاجون إلى شىء . وكانت هناك امرأتان لهما إبل ، فلم تجدا لها

ماء؛ لأن المياه في الآبار قلت جدًا، فذهبتا إلى رجل اسمه أحيمر ثمود وأغريرته على قتل الناقة فقتلها - فلما قتلت الناقة صعد فصيلها على صخرة تسمى القارة ورغا ثلاثة أصوات. فقال صالح: يا قوم أدركوا هذا الفصيل لعل الله تعالى يرفع عنكم العذاب فذهبوا يبحثون عن الفصيل فلم يجدوه، حينئذ أبلغ الله تعالى صالحًا أن العذاب سيأتي بعد ثلاثة أيام.. أول يوم يرون سحابة مصفرة والثاني محمرة والثالث مسودة ثم يأتيهم العذاب.



المؤامرة على نبي الله صالح عليه السلام

قال تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]

انظروا الوقاحة وقلة العقل والسفاهة، يبيتون لقتل نبي الله صالح ويقسمون بالله ويتعهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة النكراء، فهم يتقاسمون بالله على قتل رسول الله، هذا مما يدل على غباثتهم ووقاحتهم، وأنهم ليس عندهم ذرة عقل حتى ولو في خدمة ضلالهم. ومعنى ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أى قالوا لبعضهم: هيا نحلف بالله أن نبني لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته. ومعنى: ﴿لَنُبَيِّنَنَّ﴾ المبيت هو ما يقطعك عن الحركة، ثم تعود فتبيت الليلة وتصبح في الصباح لتواصل عمل يوم جديد، ولكن قولهم هنا: ﴿لَنُبَيِّنَنَّ﴾ يقصدون من ذلك أن يعدوا له بيئات لا يقوم منه، فلا يخرج عليه صباح بعده أبدًا، وذلك بأن يقتلوه. وحينما يقتلونه لابد أن له أهلا وأقارب سينتقمون ممن قتله. ولذلك احتاط الكفار لهذا الأمر بأنهم سيقولون لأقاربه وأولياء الدم: إنهم لا يعرفون شيئًا عن هذا الأمر وليس لديهم فكرة عنه، هم دبروا ذلك وفهموا أن الله تعالى يسلم نبيه ويتركه لهم ليقتلوه ثم يتصلوا من جريمتهم؛ ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد.

ولكن ماذا كانت نتيجة مكرهم؟ قال تعالى: ﴿وَنَظُرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١] فكيف حدث ذلك؟ الكفار رصدوا تحركات صالح عليه السلام وعرفوا المكان الذي يبيت فيه ودخلوا عليه، فساعة دخلوا عليه ليفعلوا فعلتهم؛ استقبل كل واحد منهم حجرا لا يعرف من الذى رماه، كأن الله تعالى سخر ملائكة يضرب كل واحد منهم واحداً من الكفار فهلكوا جميعاً، ونجا النبي ومن معه. أو أن الله صنع له حيلة خرج بها، وقالوا: إنه ذهب

إلى حضرموت، ولما ذهب إلى هناك مات، فسموها حضرموت من أجل ذلك . وقال بعض العلماء: إن الرهط ذهبوا لينتظروا صالحاً في مكان، وجاءوا في سفح جبل واختبئوا فيه حتى يمر صالح، فبينما هم يجلسون في هذا المكان أسقط الله عليهم صخرة قضت عليهم . المهم هلكوا ودمروا سواء كان ذلك بالملائكة التي رمتهم بالحجارة، أو بنجاة منهم إلى حضرموت، أو بوقوع الصخرة عليهم، فكل هذه جنود الله تعالى، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

فهم أرادوا أن يهلكوه هو وأهله، فأهلكهم الله هم وقومهم أجمعين، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) [النمل]، والدليل على هلاكهم أنه لم يبق منهم أحد، وأصبحت بيوتهم خاوية لا أحد فيها .



في انتظار العذاب

أعطى الله تعالى ثمود العظاات كلها، لقد أرادوا آية، فجاءتهم ناقة الله تحمل جنيها في بطنها، كما طلبوا تماما . وكانت معجزة مشهودة . . وأمرهم ألا يتعرضوا لها أو يمسوها بسوء، وإلا أتاهم العذاب من الله سبحانه وتعالى . فالحق جل جلاله حين يطلب منه الكفار آية، ويحققها مشهودة لهم . ولا يؤمنون بها، يحق عليهم العذاب، فماذا فعلت ثمود؟ وجدوا الناقة تأكل من زرع الكفار فتمسحها مسحاً، وتأتى لزرع المؤمنين فلا تقربه، وإذا شربت كمية من الماء، شربت بحيث لم يبق في الآبار إلا اليسير، فإذا ما أتوا ليرووا في اليوم الثاني لم يجدوا ماء، ويأتى اليوم الثالث فتمتلئ الآبار بالماء . فقد حدد الله سبحانه وتعالى أن للناقة شرب يوم، ولهم شرب يوم . . فلما لم يستطيعوا الاحتمال فعقروها أنذروا بعذاب الله .

واقرا قوله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] عندما عقروا الناقة قال لهم صالح: تمتعوا ثلاثة أيام لن يمسكم فيها شيء، ثم يأتى وعد الله بالعذاب في اليوم الرابع، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَتْرَافَهُمْ﴾ [هود: ٦٦] ولم يقل فلما جاءت الصاعقة أو الصيحة، بل جاء الأمر من الله تعالى بالعذاب، وهو أمر واقع لا محالة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى له الأمر كله . يقول للشئ كن فيكون . والحق سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلَمَّا

جَاءَ أَنْزَارُنَا بَيِّنَاتٍ صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴿هود: ٦٦﴾ الفاعل واحد. هو الله سبحانه وتعالى، والأمر واحد. فكيف ينجو المؤمنون ويهلك الكافرون؟ هذه هي عظمة الخالق سبحانه وتعالى، يبطل طبائع الأشياء أو يمضيها. وهكذا كانت الصبيحة أو الريح أو الرجفة. القوم كلهم موجودون في مكان واحد، كافرهم ومؤمنهم. تأتي الصبيحة فيهلك الكافر وبجواره المؤمن لا يحدث له شيء؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الأمر لكل خلقه. ويسأل بعض الناس إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قرر إهلاكهم، فلماذا الإمهال ثلاثة أيام، نقول: إن العذاب إذا جاء انقطع الألم الحسي؛ لأن الإنسان يموت وعند موته ينقطع الألم. والله تبارك وتعالى يريد أن يعيشوا ثلاثة أيام ليعانوا قرب تنفيذ الوعيد. الذي قال الله سبحانه وتعالى عنه: **﴿وَعَذَابُ غَيْرِ مَكْذُوبٍ﴾** [هود: ٦٥].

الحق سبحانه وتعالى قال: **﴿فَمَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾** في دياركم؛ معناه أنها ديار متعددة، فكأن الذين كفروا كانوا في أكثر من مكان، بل إن المسافرين منهم لحقهم عذاب الله وتبعهم حيثما كانوا، فكأن العذاب نزل على الديار وعلى الذين كانوا خارج الديار، ولم ينح من العذاب إلا شخص واحد اسمه. «أبو رغال»، كان يحج بيت الله الحرام، ولذلك ظل الحجر الذي سيضرب به أو الصبيحة التي ستودي بحياته إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه، فكل الكفار أهلكوا إلا هذا الرجل، ظل العذاب ينتظره حتى خرج من بيت الله الحرام فوقع عليه الحجر.



بماذا أهلك الله عز وجل ثمود؟

يقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَمْسَجُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾** وقوله سبحانه وتعالى: **﴿جَنِينَ﴾** أي حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التي كان عليها، فالذي كان واقفاً ظل على وقوفه، والذي كان قاعداً ظل على قعوده، والذي كان نائماً ظل على نومه، أخذوا جميعاً على هيئاتهم. مع أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن صالحاً كلمهم بعد أن أخذتهم الرجفة وعاتبهم وقال لهم إني نصحتكم، فكيف كلمهم وهم أموات؟ الميت يسمع كلام الحي، ورسول الله ﷺ خاطب القتلى من كفار بدر، وقال لهم: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟. قال المسلمون: يا رسول الله أتكلّمهم وقد جيفوا؟

أى أصبحوا جيفة. قال رسول الله ﷺ: واللّه ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرّون أن يحيّوا^(١). وهكذا كان صالح يخاطب قومه بعد أن أخذتهم الرجفة فيقول لهم: لقد أبلغتكم رسالة الله ونصحتكم ولكنكم لم تقبلوا نصحي.

هؤلاء هم ثمود قوم صالح، أخذتهم الرجفة أى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز. ويعطى لنا القرآن الكريم صوراً مختلفة لتأديب الله لثمود، فمرة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ومرة يقول: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ ذَاتِ الْعَيْنِ﴾ [الحاقة: ٥] ومرة يقول: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧] وسماها فى سورة أخرى «الصاعقة» فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٢٣] والرجفة والطاغية والصيحة والصاعقة كلها تؤدى معنى الحدث.. وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه.

على أننا لا بد أن نتنبه إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ وكان القياس السطحي يقتضى القول: وأخذت الذين ظلموا الصيحة، ولكن الذى يتكلم هو الله تعالى الذين يقولون كان لا بد أن تكون أخذت بالتأنيث نقول لهم: إن الصيحة ليس معناها أنها حدثت مرة واحدة؛ لأن التاء هنا تستخدم عندما تكون حدثت مرة واحدة، ولكنها صباح وليس صيحة. والصياح فيه عزيمة الرجولة. ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يجمع الأمرين تكون صيحة وقوة. ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ ولم يقل أخذت؛ لأنها حدثت مرات متعددة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ أى ملقين على ركبهم وجباههم هامدين بلا حراك، وقوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] مادة غنى كلها سواء، غنى وغنى وغناء كلها تؤدى نفس المعنى. وقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] ﴿تَغْنَبْ﴾ يعنى أنها لم تكن موجودة بالأمس. إذن.. فالمعنى معناه الوجود وضده العدم.

وقوله تعالى فى الآية الكريمة: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]. أى: كأنهم لم يقيموا فيها، بمعنى: كأنها أصبحت خالية ولم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨] هذه حيثية إهلاكهم

(١) أخرجه مسلم [٢٨٧٤/٧٧] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه.

بالصاعقة وهم لعنوا في الدنيا والآخرة، وقد قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا بشاعة جريمتهم حتى نعرف أن القصاص عدل ومناسب لبشاعة الجريمة.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ عادةً يقال كفروا بربهم، ولكن الحق تبارك وتعالى قال: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى أن هناك فرقاً بين المعنيين. . كفروا، أى ستروا وجوده وأنكروه، وكفروا بربهم أى لم يؤمنوا به مع اعترافهم بأنه موجود، هذا هو الفرق، وعندما نرى الذنب الكبير الذى ارتكبهه نعرف أن إهلاكهم كان عدلاً، ونقول كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿الْأَبْدَانِ لَشَدِيدٍ﴾.

